



لا أعرف سر تعلقي بكتابِ وحدتي ونفورِي عن الاجتماع بالناس حتى خاصّتي

ليالي طوال عديدة يهرب فيها النوم من عيوني وقد ينقضِي الليل كله وأنا شارد متسمِّر في مكاني يوقدني مؤذنُ الصلاة أو صوت امرأة أو أبنائي ..

يعذبني أن تُسألني زوجتي: ما بك؟ فلا أُعرب جواباً، وأكثر من هذا عذاباً أن تُسألني بماذا تفَكَّر ولماذا أنت مهموم؟!

فتابعت الأسلوب العلمي الرصين وعزمت معرفة الجواب، فجلست أراجع نفسي ماذا كنت أتذكرة فأذهل به وأُسرح في عوالم بعيدة وقريبة معه، فوجدتني أُسرد لنفسي حكاية أسيفة:

كان يا ما كان: وكنا نعيش في بيت ريفي بسيط بأثنائه لكنه عظيم جداً بسيده رحمة الله، فكان فيه أبي - رحمة الله - يملأ سكونه بصوته وهديره وبتلاؤه الرقراقة للقرآن ليلاً نهار وبضيوفه الذين ربما تعاهدوا ألا يمرّ يوم دون أن يمرّ بنا أحدهم أو كثيرون منهم. تملأه أمي حفظها الله بحركتها في أرض الديار تجمع أوراق الزيتون وما يتتساقط من شجرة العنبر أو تمسح بقایا المطر تجمّع في شقوق الأرض الإسمانية الخشنة. كنا وakan صغار أخوتي وأخواتي يملؤونه مرحًا وصخبًا حتى لتخاله إن اجتمعوا مدرسة ابتدائية، ما يضطر الوالد رحمة الله لعصاه التي تحت رأسه يهزّها ويضرب بها إن لزم الأمر. واليوم تبدّل البيت فصار أوسع وأجمل لكنه يائس مقيد؛ فالوالد قضى نحبه رحمة الله، والوالدة أقعدتها المصائب التي مرّت بها

فلا تتحرك إلا على هونٍ لمرضها وتعيها، وأطفال أخواتي صاروا كباراً وكلُّ في بلدٍ ولا أرى إلا أقلُّهم على فترات.

كان يا ما كان: وكان لنا شيخ نلتقيّ من حوله نسمع ونتعلّم وكأننا في دنيا غير دنيانا، لم يكن انتماًنا له ولهذه الكوكبة أقلَّ من انتماًنا لأهلينا وآبائنا، بل ربما نهرب من بيotta لنلتحق به؛ لأننا نجد حيَاة قلوبنا فيما نسمعه واستقامة أمور ديننا فيما نتعلّم، ولم يكن إخواننا في مجلسه بأقلَّ من إخوتنا لآبائنا بل ربما أكثر لأنَّه – كما تعلَّمنا – أخوة الدين فوق أخوة النسب، حتى إنَّ من يقع في ضائقة يبدأ بأسرته الدينية هذه قبل أسرته الاجتماعية. واليوم تنظر حولك وإذا أكثر الإخوة قضى نحبه وما بدلَّ، أو بقي وبدلَّ بما عدت تراه أو يجمعك به ما كان، والشيخ غيَّبه سنتون من السجن خرج بعدها لأرض لا نراه فيها، ونقرأ كتاباته دون سماع كلماته له في القلب ما كان يوم افترقنا والله نسأل أن يكون لنا عنده ما له عندنا.

كان يا ما كان: وكان لي أخٌ يكبرني أصاحبُه كأحد أصدقائي، وإن لزم فيقوسو عليَّ أكثر مما يقوسو أبي، ما زلت أذكر أنه مع التوبيخ علّمني أحكام التجويد، ومع المخاصمة والمعاندة والمرافقة تعلمت منه الكثير في الحياة، وما زلت أذكر كم ضربني أخواي الكبار في سنِّ الأولى عندما يعلّموني أو يوجّهونني؛ وأحمدُ الله أنني لم أنف من العلم من يومها!! وكان لي أخٌ (على رؤوس بعض كما تقول العامة) ولا أعرف كم تشاجرت معه ونحن صغار، وكم كنا قريبين من بعضنا ونحن شباب. لكن القدر لم يمهلنا لأعرف كيف سنكون ونحن كبار، فخانَ العهد أو خنته – لست أدرِّي – ومضى وحده في سكونٍ شهيداً بطلاً حافظاً لكتاب الله طيَّب الذِّكر في الناس حسنَ الأثر في أهله وأصحابه، وقد خلّفني وراءه أنتظره ليعود من توصيله أخاً لنا وما زلت أرقبه يوم بلغَ أذني نعيه ووصلَ بابنا جثمانه قبل صوته مع موتوره القديم يقتحم علينا به البيت؛ فرحمك الله يا أخي وجمعنا في مستقرِّ رضوانه.

كان يا ما كان: وكان لي أخوات ثلاثٌ قريبات في بيتهنَّ من بيتنا مثل قربهنَّ في محبتهنَّ من قلبي، أشكو إليهنَّ همومي وما أكثرها، وأجلس عندهنَّ أكلٌ وأشرب وإن شعرت بنعاسٍ فأنام ليس دون بيت أهلي وزوجتي في الراحة والهباء. واليوم لا تجمعنا سوى مجموعة على الواتساب تتبادل فيها الدموع مع الصور والكلمات، مع صور أطفالنا الذي صرنا نخطئ بينهم: أهذا عمر أم عمران؟ وهذه شيماء أم عائشة أم سمية؟

كان يا ما كان: وكان لي أستاذة في كل اختصاص، أراجعهم في أمور العلم والحياة، أحّبّهم أستاذة وأصحاباً كباراً يزورني بعضهم في بيتي على بُعد المسافة بيننا وأزورهم في بيوتهم لكن القلوب أقرب فلا تحول الأماكن دون التلازُر مع تقارب القلوب، فتعلّمت منهم العلم والسمّت. ثم أفتُ بعد سنتين فلا أراهم وأبحث في الشابكة ووسائل التواصل على أظفر بواحد منهم له حساب في الفيس أو توينر لأطمئنَّ عليه. وما أسعدي عندما تخرج لي صورة في خبر هنا أو هناك لواحدٍ منهم.

كان يا ما كان: وكنت طالباً مجتهداً أولاً في الثانوية العامة إلى الإجازة الجامعية حتى الماجستير، تتفجر معالم الشباب فيَ مع العلم، فأضرب في التخصص وفي علوم الدين، وكتب في مكتبي وكثير منها في رأسي. ثم أتلفت اليوم فلا أجد الكتب

—إلا يسيراً— فوق الرفوف وأنبىش رأسي فلا أستحضر المسألة إلا بعد لايٍ، ولا جلس الساعة أو الساعتين للدراسة والبحث إلا وكأنما أنقل جبلاً من مكانه.

كان يا ما كان: وكنا نجلس أول أيام الثورة نرسم على جدار المساء في البساتين صورة سوريا الغناء والكل فيها يفرح ويمرح دون الأسد، ونتراهن أيسقط في شهر أو شهرین ولم نختلف أنه يسقط في أقل من نصف سنة، كنا بين فلاج وباطنجي وكومجي وطيان وطبيب وطالب علم وأستاذ، كنا والشيخ خالد يهدر يخطب بأنه النذير العريان، وفرزات يصوّر فوق في الساحات وفوق المآذن والحيطان، وهادي يتصل وينشر، والدكتور قاسم وصبه في المشفى ليل نهار، والكل يتقي في المظاهرات المسائية وطراد وأخوته يرتبون البث والإعلام والكل يهتفون متحابين متآخين، وكتائب الفاروق والمغاوير تجول في شوارع القصیر منا وفيينا قبل أن تختلف الأسماء والقلوب، ونتلفت فلا نجد القصیر ولا أهلها، ولا نصوّر إلا ونحن شتات في لبنان وتركيا وأوربا ومناطق شتى من سوريا، وندخل وسائل التواصل فنجدها وسائل للتباغض والتشاتم والتقاطع؛ لا تعرف كبيراً يتفق عليه الناس ولا صغيراً يعرفه منا أحد يرمي هذا ويقيّم ذاك ويوقع بين الأخوة والأقارب، فلا تدرى تتأسف على البلد أكثر أم على أهلها وما صاروا إليه من تشتت في الأماكن وتباغض وتحاسد وخصام.

فلا أدرى أهذه نفسي أم مكتب مفقودات حقاً؟! ولست أدرى كيف يعيش من يفقد كل أولئك وكل ذلك؟!

في إدارة المشاريع – وحياة كل إنسان مشروع، وهو مديره – كلام مهم عن إدارة المخاطر، وكيفية الاستجابة الالزمة لكل خطر قد يدهم مشروعك، فما يدهمك دون خطة يعكّر عليك مشروعك وقد يذهب به. وكل ما ذكرته لم أكن قد أعددت خطة استجابة له قبل فقدّه، فاهتزّت سفينتي وعصفت بها الأمواج، وأرجو من الله التوفيق فأحسن إدارة حياتي بعد تلقي المفقودات، وما دمت بصحتي وعافيتي فلن أترك مشروعي للمخاطر تذهب به، وسأجدد الخطة لأمضي به من جديد بعون الله.

فكمَا قال سعيد الأسعد: **الحياة صعبة؛ تُسعدنا أحياناً، وتُوجّعنا أحياناً أخرى**
فيوم لنا ويوم علينا ويوم نسأء ويوم نُسَرّ
فالألم والحزن من طبيعة الحياة.

لكن المهم ألا تهزم قلوبنا، فما دمنا لم نستسلم فنحن قادرون على خوض الجولة القادمة.

ومن أعظم الانتصارات أن نكون بعد كل جولة قادرين على خوض الجولة التالية.

"**وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبْلَنَا ﴿٤﴾ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ**"

المصادر: